# 6

## عبد الحليم حافظ.. ماذا أعطته السلطة؟!

(أي صـدفة هـذه التـي كانـت في انتظـار هـذا الفتـى النحيل، أي صدفة تلك التي جعلت بدايته تتزامن مع بداية عصر جديد في مصر.. صحيح أن علاقـة حلـيم ونـاصر لم تكن قد ولدت بعد، ولكن علاقة أكبر كانت قـد بـدأت .. إنها علاقة عهد جديد وأسلوب جديد..)

فقدَ حليم حضن أمه قبل أن يراها.. وعندما شبّ احتضنته مصر.. لم يعرف كلمة (أبي)، ولم تمهله الأقدار لأن يقولها ويحسّها.. وعندما نضج وجد نفسه ابنًا لكل المصريين، لدرجة أن احتضنه عبد الناصر زعيم الثورة نفسها.

افتقد حليم وجود (الحبيبة)، فإذا به يصبح فتى أحلام كل الأجيال! فهل كان (اليتم) وعذاب الحرمان.. هما الدافع – أو العامل المساعد – الذي ألقى بحليم في أحضان (ناصر) الذي كان بمثابة الأب البديل، لا الزعيم المغوار؟

ملاحظة ينبغي التوقف عندها وتحليلها من جانب المتخصصين، فقد كان اليتم سرًّا من أسرار جاذبية هذا الفتى الموعود بالعذاب.

وفيما عدا ذلك فإن الفترة السياسية التي بزغ فيها نجم حليم، وما شهدته من تحولات سياسية واجتماعية واقتصادية، ساهمت – دون شك – في صناعة ظاهرة العندليب؛ فقد وجدت الثورة منذ البداية في حليم الصوت المختلف الذي يمكنه أن يكون معبرًا عنها، وفي اعتقادنا أنه لو ظهر حليم قبل خمس سنوات فقط من تاريخ ظهوره ربما لم يكن قد صادف كل هذا النجاح، ولكن أيضًا فإن سر نجاح حليم هو عبقريته في أن يستوعب الدور المطلوب منه، حتى إنه التحم بالثورة التحامًا كاملاً، ولكنه لم يكن مجرد "كورس" لصوت الثورة، بل كان واحدًا من الضباط الأحرار بغير ملابس عسكرية أو رتبة قيادية، ففهم توجهاتهم واستوعبها جيدًا، والأهم أنه آمن بها، ثم ساعدته الظروف بمؤلفين عباقرة مثل: جاهين والأبنودى، وملحنين ثوريين مثل: الموجي وكمال الطويل.

ومع شعار "التغيير" الذي رفعته الثورة منذ البداية، كانت هناك حاجة في أن يكون للثورة مطربها وصوتها الذي ينقل رؤاها وتوجهاتها إلى الناس، في وقت لم تكن الصحف

تصل فيه بدرجات كافية إلى نسبة كبيرة من الجماهير، بخلاف ما للفن من جاذبية وتشويق وقدرة على التغلغل إلى النفوس، فوجدت الثورة في حليم نموذجًا لهذا التغيير، وهو ما يفسر عدم اضطلاع مطرين كبار ومحبوبين وقتها بالقيام بهذا الدور، أمثال: عبد العزيز محمود، محمد قنديل، كارم محمود، أو عبد الغنى السيد...

لقد توحّد حليم مع الثورة التي استفادت منه في طرح شعاراتها، كما استفاد بالطبع من الثورة، بعد أن أصبحت أغانيه الوطنية جزءًا من حب الوطن.. إنها نوع مختلف من علاقة الفنان بالسلطة؛ فهي علاقة إيجابية تعتمد على العطاء المتبادل في حدود المسموح والمشروع، فلم يقدم حليم من جانبه إلا فنه، ولم تعطه السلطة من جانبها إلا رعايتها ومساندتها، وبعضًا من.. حمايتها!

في يوم فرح هدى ابنة جمال عبد الناصر، اقترب عبد الناصر من حليم وسأله: بتنام كويس يا حليم؟

قال حليم: أنام بمساعدة عقار "الموجادون".

انزعج عبد الناصر وقال لحليم: ولكن هذا العقار يجعل مَن يستخدمه عصبيًّا أثناء النهار.

هذا الحوار البسيط بين زعيم كبير كعبد الناصر وبين فنان يكشف مدى العلاقة الودية التي كانت بينهما، إنه حوار "أبوي" حميم، أشبه بالحوارات بين الأصدقاء وليس بين أحد الساسة ومواطن بدرجة فنان، ولكنه.. حليم.

لذلك عندما يغني حليم لناصر: "ولا يهمك يا ريس من الأمريكان يا ريس، حواليك أشجع رجال"، أو "يا بركان الغضب يا موحد العرب"، فإنه لا يغني تملقًا، بل إيمانًا وتجديدًا للمبايعة التي وهبها حليم لناصر.

وعندما أعلن ناصر قراره بالتنحي، كان حليم أول مَن يخرج بعربته "البويك" برفقة صديقه الحميم كمال الطويل، ليصل إلى بيت ناصر بصعوبة بالغة؛ من أجل إثناء الزعيم عن قراره.

وحليم لم يكن يفعل ذلك نفاقًا أو رياءً، باختصار لأنه لم يفعله وحده، فقد كشف لي محمد الدسوقي ابن شقيقة السيدة أم كلثوم، أن كوكب الشرق قد استقبلت خبر التنحي بصرخة مفزعة، بل وبأغنية تطالب فيها الزعيم بالعودة إلى قيادة شعبه، رغم أنها كانت لا تزال تعاني من حالة اكتئاب دخلت في دوامتها على إثر هزيمة 1967 المريرة.

وعندما يمرض حليم يفاجئه ناصر بالزيارة في منزله ويرفض الجلوس في الصالون مثل الضيوف، ولكنه يسحب كرسيًّا ويجلس إلى جوار حليم الذي كان قد أصابه النزيف لأول مرة في حياته.

ولكن عبد الحليم لم تكن لديه الجرأة على أن يعامل ناصر بالمثل فيبادله الزيارة في منزله بمنشية البكري، ولا "كاريزمة" ناصر كانت تسمح للآخرين مهما كانت علاقته بهم لأن يتبسطوا معه أكثر من اللازم، فهو رجل دولة مهموم بقضايا وطنية وقومية، والوقت لديه محسوب ومحدود جدًّا، فها هو حليم يقول في لغة ذكية لناصر إنه اكتشف أن أهم شيئين في الدنيا لصحة الإنسان هما: المشي والنوم؟

قال ناصر وقد فطن إلى أن حليم يوجه له رسالة: وأمشي فين؟.. ده أنا لو مشيت شوية هتلاقي مكتبي ورايا!

هكذا كان ناصر مشغولاً ومهمومًا، ولا يمكن لحليم بحساسيته التي عرفت عنه أن يذهب إلى ناصر ويحكي له مشكلة تخصه، حتى عندما تعرَّض لمضايقات من جانب أحد رجال الأمن بخصوص علاقته بممثلة شابة معروفة، وجد حليم حرجًا كبيرًا في أن يذهب إلى منشية البكري ليحكي لناصر ما يتعرض له من مضايقات، بل ذهب إلى المشير عبد الحكيم عامر الذي كان يتبسط أكثر في علاقاته بالوسط الفني.

وفي رأينا أن موقف حليم في هذا الاتجاه كان يؤكد على ذكائه المعروف عنه، فالفنان يجب أن يعرف أن هناك خطوطًا وهمية فاصلة بينه وبين السلطة مهما كانت حميمية العلاقة بينهما، فالسلطة يجب أن تكون الداعية للفنان، وليس على الفنان أن يكون متلهفًا للقاء السلطة كلما تعرض لإحدى المشكلات.

ولكن ناصر لم يكن يبخل على حليم – ابن الثورة – بالسؤال، ففي فترة بعد الهزيمة، وكان حليم قد بدأ يعاني بشكل أوضح من مضاعفات المرض، اتصل ناصر بحليم قائلاً: أنا عبد الناصر..

- أهلاً يا ريس.

- حافظ على صحتك، ومن رأيي إنك تتجوز أحسن.

- حاضر يا فندم.

ضحك ناصر وقال لحليم: أنا مش بأمرك. الجواز مش بالأمر، لكن أنا بتمنى لك السعادة.

- متشكر قوي يا ريس.

وانتهت المكالمة السريعة، ولكن بعد أن شحنت حليم بالأمل والتحدي.

ولعل الرسالة التي كتبها حليم في رثاء الزعيم تكشف عن بعض طبيعة العلاقة بينهما: (روز اليوسف العدد 3377) وسوف يأتى نصّها فيما بعد.

مات ناصر، ولم يستطع حليم – لأسباب كثيرة – أن يحمل مبادئ ناصر على صوته كما قال في رثائه، ولكننا نستطيع أن نقول – مطمئنين – إن بعضًا من نفوذ حليم قد استمر في الجزء الذي شهده من المرحلة الساداتية، بل إنه بسبب المكانة الخاصة التي استطاع حليم أن يحتفظ لنفسه بها في بلاط السلطة الجديدة، فإنه قد نجح في أن يلعب دورًا مهمًّا في أزمة الكاتب مصطفى أمين، فاستطاع أن يوفر لمصطفى أمين إعاشة خمسة نجوم في معتقله، وبسبب هذا تمكن مصطفى من كتابة عدد من كتبه أثناء تلك الفترة، إلى أن تمكن حليم – في ظل ظروف مساعدة – بمكانته لدى الرئيس السادات، من لعب دور مهم للغاية في عملية الإفراج عن مصطفى أمين، وكتب حليم برقية إلى علي أمين من المطار – وكان على سفر – يهنئه فيها بخروج مصطفى أمين قال فيها: الأخ الأستاذ علي أمين. عمارة ليبون – الزمالك – القاهرة:

بعد محاولاتي الكثيرة للاتصال بكم، أكتب لكم من مطار القاهرة في طريقي إلى لندن. أهنئ نفسي قبلك. ألف مبروك. ألف قبلة إلى الحبيب مصطفى.

وإلى اللقاء. عبد الحليم حافظ..

ارتبط حليم بالثورة منذ العام الأول لميلادها، بل إن ميلاده الفني الفعلي جاء بعد ساعة واحدة من إعلان الجمهورية في مصر وسقوط دولة الملكية. وقصة ذلك أن السيد وجيه أباظة مدير الشئون العامة للقوات المسلحة وقتها، وهي التي كانت تشرف على احتفالات عيد الثورة الأول، التقى بحليم، ولّما استمع إليه قال له إنه سيقدمه في حفل حديقة الأندلس إلى جانب فريد الأطرش، وشادية، وعبد العزيز محمود، ومحمد فوزي، وكارم محمود، فخفق قلب حليم خوفًا، واختلطت بداخله مشاعر الفرح بالقلق! وفي الليلة المحددة، وفي تمام الساعة الحادية عشرة مساءً، كان حليم يشكو لمقدم الحفل الداخلي وكان ليلتها هو الفنان يوسف وهبي مِن تأخر ظهوره على المسرح، وفجأة تم الإعلان عن خبر إلغاء الملكية، وأن مصر أصبحت ذات نظام جمهوري منذ هذه اللحظة، فطمأن يوسف وهبي حليم، وبشّره بهذه البشرى، ومع دقات الساعة الثانية عشرة كان يوسف وهبي يقدم حليم قائلاً: "مع إعلان ميلاد جمهورية مصر، سنقدم لكم ميلاد مطرب جديد هو عبد الحليم حافظ".

أيّ صدفة هذه التي كانت في انتظار هذا الفتى النحيل؟ أيّ صدفة تلك التي جعلت بدايته تتزامن مع بداية عصر جديد في مصر؟ صحيح أن علاقة حليم وناصر لم تكن قد ولدت بعد، ولكن علاقة أكبر كانت قد بدأت.. إنها علاقة عهد جديد، بصوت جديد، وأسلوب جديد، والنظام الجديد دائمًا بحاجة إلى دماء جديدة وفكر جديد يقدمه إلى الجماهير.. لقد ظهر حليم في تلك الليلة ومِن خلفه ستون عازفًا وكان هذا شيئًا جديدًا تمامًا من حيث الشكل، فقد كانت الفرقة لا يتجاوز عددها حتى هذا الوقت عشرة عازفين أو اثني عشر عازفًا على الأكثر.

ولم يكن هذا العدد الهائل يعبّر عن ثراء هذا المطرب، بل إن جميعهم كانوا من زملائه في معهد الموسيقى جاءوا متبرعين من أجل نجاح زميلهم. أما من حيث المضمون فقد غنى حليم "صافيني مرة وجافيني مرة.. ولا تنسانيش كدة بالمرة" من كلمات سمير محجوب وألحان صديقه محمد الموجي، وكانت جديدة تمامًا في الشكل والمضمون هي الأخرى.

وكان حليم من الذكاء والمسئولية بحيث ربط نفسه مع أحلام ومبادئ الثورة، فغنى أول أغنية وطنية له "إحنا الشعب" التي كان نجاحها الساحق دافعًا قويًّا للاستمرار في هذا اللون من الغناء الذي جاء بشكل مختلف عن أي مرحلة سابقة، وجاءت مشجعًا للنظام لأن يرعى هذا الصوت المعبر عن آمال الجماهير ومبادئ السلطة في نقطة التقاء واحدة.

وغنى حليم: بالأحضان يا بلدنا يا حلوة، قلنا هنبني وادى احنا بنينا السد العالي.. يا استعمار بنيناه بإدينا السد العالي. كانت هذه الأغنية في 1960، وفي العام التالي أغنية ذكريات الطفولة، وفي عام 1964 "يا عديم الاشتراكية" لمرسي جميل عزيز وكمال الطويل، وفي 1966 رائعة صلاح جاهين والطويل "صورة" للشعب الفرحان تحت الراية المنصورة – وقد قالت لي السيدة منى قطان زوجة العملاق الراحل جاهين أنه كتب هذه الأغنية بينما كانا في القطار في طريقهما إلى الإسكندرية لقضاء شهر العسل – وفي عام 1967 جاءت أغنيات الأبنودي والطويل: بركان الغضب، بالدم، إنذار، اضرب، أشجع رجال، يا استعمار، راية العرب، وابنك يقولك يا بطل هاتلي نهار، وظل حليم يفتتح جميع حفلاته عقب النكسة بأغنية "أحلف بسماها وبترابها.. أحلف بدروبها وأبوابها.. أحلف بالقمح وبالمصنع.. أحلف بالمدنة وبالمدفع.. باولادي وأيامي الجاية.. ما تغيب الشمس العربية.. طول ما أنا عايش فوق الدنيا".. وقد نذر بغنائها حتى يتحقق الانتصار وتمحى الهزيمة، وهو ما تطلب منه غناءها لمدة 6 سنوات كاملة.

وأيضًا من أغنيات هذه المرحلة أغنية الأبنودي وبليغ حمدي "موال النهار": عدّى النهار والمغربية جاية تتخفى وراء ضهر الشجر.. وعشان نتوه في السكة شالت من ليالينا القمر.. وبلادنا ع الترعة بتغسل شعرها.. جانا نهار مقدرش يدفع مهرها.. يا هل ترى الليل الحزين أبو النجوم الدبلانين.. أبو الغناوي المجروحين.. يقدر ينسيها الصدى أبو شمس بترشّ الحنين.. أبدًا بلادنا للنهار بتحب موال النهار.. لما يعدّي بالدروب ويغني قدّام كل دار".

ولا ننسى أغنية حليم إبان معارك 1956 "يا أهلاً بالمعارك".

استمر حليم في غنائه الوطني بعد عام 1970، مما يؤكد أنه لم يكن يغني لعبد الناصر بل كان غناؤه خالصًا لمصر من أي شبهة نفاق أو تملّق، فغنى أثناء حرب 1973 "قومي يا مصر"، و"الفجر لاح"، و"عاش اللي قال"، و"خلي السلاح صاحي"، ومع تأكيد النصر وعودة سيناء "وصباح الخير يا سينا"، وقد كان حليم مقيمًا في الأستوديو ومعه صلاح جاهين والأبنودي والطويل في شبه إعاشة كاملة داخل أستوديوهات الإذاعة أثناء حرب 1973.

بالأحضان يا مصانع.. يا مزارع.. بالأحضان.. يا حصاد الثورة.. يا حلم وعلم.. بالأحضان.. يا مداين.. يا جناين.. بالأحضان.. ياللى انت بترفع راية السلم.

إن حليم كان قائدًا متمكنًا وبارعًا لجمهوره الذي جمع كل طوائف الشعب، ولعله قام بدور – على المستوى الشعبي – أكبر من الدور الذي لعبه هيكل في جمع الناس حول أهداف الثورة وزعيمها:

على راس بستان الاشتراكية.. واقفين بنهندزع المية.. أمة أبطال.. علم وعمال.. ومعانا جمال.. بنغني غنوة فرايحية..

كان حليم زعيمًا بالملابس المدنية.. زعيمًا بلا جيش أو قوة تشدّ مِن عوده، إلا قوة إحساس وصدق مشاعره:

ثورتنا المصرية أهدافها الحرية..

وعدالة اجتماعية ونزاهة ووطنية..

بعزيمة الأحرار وإيدين الثوار..

شتتنا الأشرار وجيوش الاستعمار.

كما كان حليم – على ضعفه الظاهر – يحمل قوة في التعبير جعلته ثائرًا مع الثوار.. فقط بالكلمة واللحن والأداء:

انتصرنا يوم ما هبّ الجيش وثار..

يوم ما أشعلناها ثورة نور ونار..

يوم ما أخرجنا الفساد..

يوم ما حررنا البلاد.

مطرب كحليم له كل هذا الانتماء الوطني والوعي القومي، كان لا بد أن يحظى بمكانه خاصة لدى النظام وخاصة رأس هذا النظام وعقله المفكر، سواء كان عبد الناصر أو السادات، وإن كان قد حظي بمكانة أكبر ودور أعمق لدى عبد الناصر بوصفه الأقرب إلى روح الثورة.

ونشأت علاقة من نوع متميز بين ناصر وحليم، حتى إن حليم لم يجد حرجًا من أن يشكو إلى ناصر هواجسه بأن صلاح نصر – مدير المخابرات وقتها – يحاول أن يورطه في عمل ما، وأنه – حليم – لا يريد لنفسه إلا أن يكون فنانًا فقط. وعلى الفور أمر ناصر بأن يرفع صلاح نصر يده عن حليم، ويتركه حرًّا طليقًّا، وكذلك أمره برفع المراقبة فورًا عن تليفون حليم عندما تأكد له أن حليم مراقب؛ لأن المخابرات اعتبرته شخصية مهمة بالنسبة لهم يتصل بها شخصيات على مستوى رفيع من كل المنطقة العربية!

وهكذا كان يمكن أن يقع حليم في فخ المخابرات لولا صلابته، ووضوح هدفه، وأيضًا لقربه من ناصر الذي وفّر له الحماية.

كيف لا وقد قال ناصر لحليم في أول مقابلة بينهما:

"إحنا بنعتبرك ظهرت مع الثورة"..

* * *

إن عبد الحليم حافظ لم يكن مجرد صوت عابر في تاريخ الغناء في حقبة معينة من تاريخ مصر، بل كان كما وصفه بحق الدكتور سيد عويس "إن عبد الحليم حافظ هو الصوت الذي سجل للتاريخ وثائق ثورة يوليو ومكاسبها"، بينما قال عنه يوسف إدريس إنه "الثورة مغنّاة"..

وغنى حليم للبسطاء كلمات لم تكن لتغنى إلا من خلال حنجرة هذا الموهوب الحساس، الذي يغني بأسلوب السهل الممتع، وبكلمات العملاق صلاح جاهين وألحان كمال الطويل الذي كان له نصيب الأسد في أغانى حليم الوطنية:

للأفراح والرفاهية حنمدّ طريق ع النيل..

اسمه في الاشتراكية التصنيع الثقيل..

بس نضاعف إنتاجنا أضعاف أضعاف..

وندبر مهما احتجنا ونحارب الإسراف..

وبقرش الادخار نتحدى الاستعمار..

ونقيم جدار جبار يحمي حياة العاملين..

آدي نقطة بنقطة جميع بنقطة الخطة..

إنها خطبة سياسية كاملة مغناة على لسان العندليب، مع الفارق بأن الخطب السياسية ما كانت لتصل إلى الناس مثلما وصلت عن طريق حنجرته، ولم يكن زعيم الثورة ليقول عن نفسه ما قاله حليم: "ريسنا ملاح ومعدينا، عامل وفلاح من أهالينا.. ومنا فينا الموج والمركب.. والصحبة والريس والزينة.. أحلف بقرآني وإنجيلي، بهدف عظيم دايمًا يناديلي"، وكان هذا هو تفسير حليم للاشتراكية "مُغنًّى" بكلمات جاهين: مفيش أنا.. فيه إحنا يا صاحبي.. أنا وأنت.. وأنت وهو وهيه.. علينا نعمل اشتراكية.. من كلمة حلوة، للقمة حلوة.. وبيت وكسوة وناس عايشين.. آدي القضية".

وبعد هذا.. هل لنا أن نتكلم عن علاقة حليم بالسلطة، بالنظام، بالوطنية، بمصر؟